قصة واقعية

حقيبـــة الذكريات

للأستاذ محمد سعيد العريان

في حارة « قصر الشوق » من حيّ الجمالية بالقاهرة ، وإلى الشمال الغربي من مسجد « أبي عبد الله الحسين » حيث لا تزال القاهرة التي بناها المعز لدين الله قائمة في هذه القباب والمآذن ، وتلك الدُّروب والمسارب ، وهذه الدُّور الرحيبة المتقادمة التي تفضي إليها من باب إلى باب إلى أبواب ...

... هناك ، حيث التاريخُ الغابر ما يزال حيًّا ناطقاً في كل ما تقع عليه العين من مشاهد وآثار وناس ؛ كأنما اجتمع تاريخ مصر الإسلامية كله في زمان ومكان ؛ فلا يزال النظر يتنقل من منظر إلى منظر يذكّر بالماضي كعهده يوم كان ؛ من جيل إلى جيل إلى أجيال ...

... هناك ، حيث لا تزال ترى وتنظر ألواناً من الناس في سمات وأزياء وملامح ، كأنما تشهد بقايا من سلائل الفاطميين وأبناء المماليك وجند السلطان سليم ...

... هناك في هذا الحي نشأ « توفيق » ...

تراه ، فلولا طربوشه الأحمر ولسانه العربي لحسبتَه واحداً من أولئك السياح الأجانب الذين يفدون إلى بلادنا كل شتاء للدرس أو للرياضة . أما أبوه فله في الحيّ جاه واعتبار ، وإن له ميراثاً من تاريخ هذا الحي العريق يمتد إلى أجيال ، منذ دخلت مصر جيوش السلطان سليم . وأما أمه فنازحة من دمياط ، فلعلها بنية من سلالة بني أيوب . وأما هو فإنه ابن أمه وأبيه ...

ونشأ نشأة أهله على صلاح وتقوى ودين ؛ لا يعرف له طريقاً إلا إلى المدرسة أو المسجد ، فلم يعبثْ به الهوى مرة ولم يَفْترّه الشباب ...

وأتم في التعليم مرحلتين ، فأراد أبوه أن يلحقه بالجامعة ، ولكن ميراثاً في دمه كان يزين له ركوب البحر ؛ فسافر إلى انجلترا ليدرس فنون الملاحة ويتهيأ لما أراد ...

* * *

وانتقل توفيق من جو إلى جوّ : من حي الجمالية في ظلال القباب والمساجد وأضرحة الأولياء ؛ إلى دنيا الهوى ومسارح اللهو وملاعب الجمال ... ورأى ، وسمع ، وعرف ...

ونظرت إليه جارته الحسناء ، فما كان إلا نظرة وجوابها حتى كانا ذراعاً إلى ذراع ...

وعاد توفيق إلى غرفته في الفندق وقد أوشك الصبح ، وإنه من صاحبته على ميعاد ؛ وكأنما كان في حلم فاستيقظ ؛ فلم يأوِ إلى فراشه إلا بعد ما أخرج دفتره ليكتب في مذكراته . إنها الحادثة جديرة بأن يذكرها في تاريخه — ثم أغمض عينيه ونام ...

وعرف توفيق منذ اليوم أن في الحياة أشياء غير ما كان يعرف ! ... ...

وكان في طريقه إلى صاحبته ذات مساء ، حين اعترضتْ سبيله فتاة ؛ ونظر ونظرت ، ثم كان تاريخ ، وذاق توفيق لوناً جديداً من ألوان الحب !

وعاد إلى غرفته ليكتب في مذكراته ، وطوى صحيفة وبسط أخرى ، وكتب ...

وخلع توفيق وقاره وألقى بنفسه في تيار الحياة ؛ وتتابعت حوادثه في فصول وأبواب ، وامتلأت حقيبته صوراً وذكريات ...

* * *

وتجرّد توفيق من ماضيه ، فلم يبق في ذكراه من صورة الأمس إلا رسوم حائلة يكاد يبليها النسيان ؛ ولكن شيئين اثنين لم يغفلهما توفيق : دروس الملاحة التي هجر من أجلها وطنه وأهله ، ومذكراته التي يثبت فيها مغامراته في الحب كل ليلة قبل أن ينام !

وانتهى توفيق من دروسه ؛ فالتحق بشركة كبيرة من شركات الملاحة الإنجليزية التي تجول في البحار بين سواحل القارات الخمس ؛ وركب ظهر البحر يتنقل بين البلاد ، وفي يده « حقيبة الذكريات » يثبت فيها فصلاً من مغامراته كلما هبط ميناء من الموانئ . لم ينس واجبه قطّ في ليلة من ليالي الأرض أو ليلة من ليالي الماء ...

لـكأنما كان يجوب البحار على هذه السابحة لغاية واحدة ، هى أن يذوق الحب فى كل ميناء تُرمى فيه السفينة فيكتب ويصف . . . !

وذاق الحب فى كل ألوانه ، إلا اللونَ الواحد الذى يكون معه الدمع !

لقد كان يخلع حبه دائماً فى الظلام قبل أن يفارق الغرفةَ المسدَلةَ الستائر ويغلقَ البابَ وراءه ؛ فإذا عاد إلى غرفته من الفندق أو من السفينة بسط أوراقه وكتب ؛ وتنتهى قصة حب ؛ فلا يبقى منها إلا سطور مكتوبة !

ومضى توفيق على وجهه ، والشر يغرى بالشر . . . !

* * *

. . . واجتازت السفينة مضيق جبل طارق فى طريقها إلى الشرق ، وأسرَّ إليه صاحبه « ماجدو » حديثاً فابتسم ؛ ومضت السفينة بهما تمخر عباب الماء ، واجتازت الدردنيل إلى البحر الأسود ، لترمى فى ميناء « كوستازا » على ساحل رومانيا ، بلاد الجمال والحب

وهبط توفيق وصديقه إلى البر ، وراحا يضربان فى المدينة ليذوقا الحب . . . الحب الذى ينتعى فى الظلام ، فى غرفة مسدلة الستائر مغلَّقة الأبواب !

وقال ماجدو : إن فى هذا المتجر يا صديقى فتيات للحب ... لقد أخبرنى صديقٌ زار « كوستازا » من قبل . . . !

ودخل الصديقان المتجر وراحا ينظران ، ووقف « ماجدو » يتحدث إلى بائعة المناديل وذهب توفيق إلى جارتها ؛ ونظر إليها ونظرتْ إليه ، وتحدثت عينان إلى عينين ؛ وقالت الفتاة بصوت مُطرب : هل يريد سيدى ... ؟

ولكن توفيق لم يكن يريد شيئاً غيرها ...

لقد ذاق توفيق من الحب ألواناً وفنوناً ، ولكنه لم ير من قبل مثل هذا الفن وهذا الجمال !

لـكأنما كان يتنقل فى البحار من شرق الأرض إلى غربها ليدرك موعداً واعده القدر فى هذا المكان !

وإن صوتها لينفذ فى أعماقه وله رجع بعيد كأنما كانت تهتف به من وراء البحار : إلىَّ يا حبيبى إلىَّ فإنى أنتظرك منذ أزمان !

وأحس لأول مرة أنه وأنها... وأحست، وتواعدا على اللقاء !

واتفقا على موعدها ، وجلسا يتحدثان ، وقال وقالت ، وعرفت أن صاحبها مصرى ، فصاحت فرحانة : مصرى ؟ ما أجمل هذا ! إن بيننا نسباً يا صديقى. إن أبى من تركيا ، أعنى جدِّى . إننى لست رومانية خالصة ، ومع ذلك ...

وسكتت « مارتزا » فلم تتم . لقد رأت فى عينى صاحبها نظرة زعمت أنها تفهم معناها

وأحس توفيق إحساساً جديداً منذ الساعة . إنه ليشعر كأنما يتحدث إليه القدرُ بلسان هذه الفتاة حديثاً لا يكاد يعيه ...

وتناول يدها بين راحتيه ، ومال عليها فقبَّلها ، واغرورقت عينـاه !

لقد جلس توفيق مثل هذا المجلس من قبل مرات ومرات ؛ ولكنه لم يكن فى مرة منها فى مثل حاله الليلة

هذه فتاة لم يعرفها إلا منـذ ساعات ، دعاها إلى خلوة للهو والشراب فما تأبَّتْ — ماله يُحسّ فى مجلسها هذا الإحساسَ الغامض حتى لا يكاد ينظر إليها نظرةَ رجل إلى امرأة ! وما باله يشعر فى مجلسه منها كأنه قد ارتفع عن بشريته حتى ليستشعر الندم لأنه دعاها إلى هذا المجلس من مجالس اللهو الحرام !

وشعر كأن روحاً خفيًّا يهمس فى نفسه ، وشعاعاً لطيفاً من نور الله ينفذ إلى قلبه ؛ فكأنما قام بينهما حجاب من الوهم يمنعه أن ينفذ إليها ويمنعها

وأطاف به طائف فأطرق ، ثم رفع إليها عينيه ونظر ... وامّحتْ فيه كلُّ معانى (الجنس) لتحل فيه معانى (الإنسان)

... وفاء إلى نفسه بعد برهة فسخر من نفسه ، وراح يقاوم هذا الطارئَ الجديد فى قلبه ويسكب فى كأسها وفى كأسه ؛ وأخذا يشربان ! ... وانتصف الليل وصحبتْه الفتاة إلى غرفته ... فإنها لتعرف أن عليها لصديقها حقاً ينبغى أن تهيأ له ؛ فما يَدْعوها مثلُه من روّاد البحار إلا لمثل ذلك ... !

... ولـكنه ... ولـكنه فى تلك الليلة كان غيرَ من كان ، ونام ونامت كما يقتسم الأخوان الفراش ! ..

ولما قام ليودِّعها فى الصباح إلى الباب ، كانت مطرقة برأسها إلى الأرض وفى عينيها دموع !

وتلاقيا من بعد مرات ، ودَعتْه إلى زيارة أهلها فلبَّى ، وتوثقت بينهما عقدة الحب على طهر وعفاف !

وذاق توفيق لوناً من الحب لم ينعم بمثله فيما فات من أيامه !

وقال لها : مارتزا ! سنفترق يا حبيبتي ؛ وستبحر السفينة بعد أيام لتضرب في مجاهل البحار ؛ فاذكريني ، واكتبي إليَّ كلما تهيأت لك فرصة !

وتفرغرت عينا الفتاة وقالت : توفيق ! بربك لا تذكر الفراق ! خذني معك ! إني لا أطيق !

وفكر الفتى قليلاً ، ثم ذهب إلى الرُّبان يرجوه أن يقبل مارتزا وصيفة في السفينة . ولكن السفينة لم تكن في حاجة إلى وصيفة على من فيها ؛ فعاد توفيق إلى صاحبته ينوء بهمه !

وأبحرت السفينة بعد أيام ، وراحت مارتزا تودِّع صاحبها ، وهي تتجلد ؛ ووقفت على الرصيف تلوِّح بيدها وبمجيبها ؛ ثم صفرت السفينة ، وراحت تشق الماء ، وسقطت الفتاة بين يدي أمها في غشية !

وحملوها إلى دارها ، وجاء الطبيب ؛ ولكن مارتزا كانت من الصدمة التي نالتها بحيث لا يجدي عليها احتيال الطبيب !

وجلست أمها بجانب فراشها تبكي ، ووقف الطبيب حيران ، ولم تفق مارتزا من غشيتها !

وراحت السفينة تشق البحر بجيزومها ، وعلى ظهرها توفيق وخلَّفت على الشاطئ فتاة بين الحياة والموت !

ولكن السفينة لم تكد تمضي على وجهها ، حتى جاءتها الأنباء بأن المجاز مغلق في طريقها ، فعادت أدراجها إلى كوستانزا ، حتى يصدر إليها الأمر بالمسير

وأرست السفينة ، فهبط توفيق مسرعاً إلى البر ليرى فتاته ويأنس بها ساعة ، وهو لا يعرف من أمرها شيئاً

ودق الباب ودخل ، وكانت تهدي باسمه ، وفزع توفيق ، وجرى إليها وهو يصيح : ماريتزا ! ماريتزا !

وأفاقت ماريتزا بعد غشية يومين ، وشفاها لقاء حبيبها حين عجز الطبيب

وثابت إلى الفتاة قوتها رويداً رويداً ، ولكنها لم تفارق فراشها ولم يفارقها توفيق . ومضت أيام ، وصدر الأمر إلى السفينة باستئناف رحلتها . وخاف توفيق أن ينال الفتاة ما نالها أول مرة لو علمت أنه موشك أن يفارقها ؛ فأسر الخبر إلى أمها لتحتال في أمرها ...

ومضى توفيق ليؤدي واجبه في السفينة ، وهو محزون أسوان

وكان باقياً على إبحار السفينة ساعات حين جاءه الربان يسأله : «توفيق، إلك تعرف فتاة كانت تريد أن تعمل وصيفة في السفينة؟ فهل يمكن أن تدعوها الآن ؟ إن إحدى وصيفاتنا مريضة وقد غادرت السفينة إلى المستشفى ونحن في حاجة إلى بديل ! »

ولم يتلبث توفيق ؛ فما هو إلا أن أسرع إلى صديقته يدعوها ، وأبحرت السفينة وعلى ظهرها الحبيبان ...

وكانت على رصيف الميناء امرأة عجوز تلوح بمنديلها !

* * *

توفيق وأخته ، هكذا كان يعرفهما ركاب السفينة جميعاً : الملاحون والركاب

ومضت السفينة بهما تشق البحار من الشرق إلى الغرب ، ومن الجنوب إلى الشمال ، ينعمان بالحب وسعادة اللقاء ، لا يظنان أن سيفرق بينهما شيء . وتمازجت روحاهما حتى ليس بينهما سر ، وسالمتهما الليالي ... ومضت سنوات ...

وكانا في أحد الموانئ حين جاءت الفتاة برقية بأن أمها تحتضر ! وكان الفراق ؛ وباعدت الحادثات بينهما ، ولكنه لم ينس ، ولكنها لم تنس ؛ فإنه ليكتب إليها وإنها لتكتب إليه !

وفعل به الفراق ما فعل حتى لا قرار له ؛ فليس له أمنية من بعد إلا أن يعود ما كان ! وتصرمت السنون، والفتى في حنين دائم وشوق لا يُغلَب !

* * *

وحنَّ توفيق إلى أهله ، فآثر العمل في شركة مصر للملاحة ليكون جهاده لبلاده ؛ ولم ينس « حقيبة الذكريات » فإنها لمه أين يكون ؛ يستروح منها نسمات الحب ويأنس إليها في ساعات الوحشة ...

ومضت الباخرة « زمزم » تتهادى من ميناء السويس في طريقها إلى «جدة» في ديسمبر سنة ١٩٣٨ وعلى ظهرها الملاح « توفيق » ثم أرست ، وركب الحجاج الفلك إلى رصيف ميناء جدة ، ومعهم توفيق مُحرِماً بالحج

وطاف الحجيج بالبيت ملبين ضارعين ، ووقف الفتى حيث بدأ الناس ، لا يتقدم ولا يتأخر ؛ وحضرته الذكرى فرأى كتابه منشوراً على عينيه بما فيه من خطايا وآثام ؛ وهمَّ يرفع رأسه